ايوانية البحتري

-٢-

(فإذا ما رأيتَ صورة أنطا كيةَ ارتمتَ بين رُومٍ وفرس)

يظهر أن هذه الصورة مرقومة على جدران الجرماز ، وهي تمثّل للناظر صورة مدينة انطاكية وكسرى يحاصرها بجنوده . وتحت أسوارها قيصر ملك الروم يدافع عنها بجنوده أيضاً ، كذا قال في معجم البلدان عند الكلام على الإيوان ان صورة قيصر كانت أمام كسرى . ولعلها صورةُ القائد الذي ناب عن قيصر في صَدِّ كسرى . أو أن المصوّر الذي صور المعركة صوّر قيصر نفسه تهكماً أو استهانةً به . وقد قال الشاعر انه منظر يُحدث الروع والخوف في نفسك إذا نظرت اليه .

أما هذه الواقعة التي تُمثّلها لنا الصورة المذكورة فهي الوقعة الثانية من الوقعتين اللتين حَدَثَتا بين الأكاسرة والقياصرة على أسوار أنطاكية . فالأولى كانت في أواسط القرن الثالث للميلاد بين شابور وڤاليريانوس ، انتهت بفتح شابور لأنطاكية وإحراقها ونهبها وسبي أهلها . والوقعة الثانية هي التي حَكَتها لنا الصورة على جدران الجرماز فوصفها لنا البحتري . وقد حدثت في أواسط القرن السادس للمسيح في عهد كسرى أنو شروان الذي وُلد النبي (ﷺ) في زمنه . وقد فتح كسرى أنطاكية بعد أن حاصرها ، فسَلَبَتْ جنوده ما في كنيستها الكبرى من أواني فضيّة وذهبيّة وحُليّ . وأخذوا يَلاطها النفيس واضرموا في المدينة النار فاحترقت ما عدا الكنيسة المذكورة والحيّ المدعو (ستراتيوم)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان ذلك في عهد القيصر (يوستينانيوس) ، فأرسل الى كسرى سفيرين فقابلاه وعقدا معه معاهدة صلح كان من مقتضاه أن يؤدّي قيصر الى كسرى مبلغاً سنوياً بشرط أن لا يُسمي هذا المبلغ (جزيةً) بل (تعييناً) وهذه هي الواقعة التي خلد الفرس صورتها على جدران إيوانهم العظيم ووصفها لنا البحتري .

(والمنايا موائل وأنو شرْ وان يُزجي الصفوف تحت الدِرَفْس)

(المنايا) جمع منية : الموت و(موائل) جمع مائلة أي بارزة منتصبة أمام عيون المتحاربين و (أنو شروان) صوابه كسر الشين و (يُزجي) يسوق ويدفع . و (الدِرَفْس) تفسّره معاجمنا العربية بالعَلَم الكبير كأنه لفظ عربي مع أنه لفظ فارسي وفارسيته درَفْش بالشين المعجمة فعُرّب بالسين كما عرب شاه شاهان بساسان وشابور بسابور . وقد اشتهر إطلاق (درفس) على علم خاص للفُرس له في تاريخهم قصة يتداولونها ، ورنّة فخر يتغنّون بها . وملخص القصة نقلاً عن شاهنامه الفردوسي أنه قام في تاريخ الفرس القديم رجل تغلّب على العرش الفارسي واستبدّ به ويسميه مؤرخو العرب الضحّاك . وقد اختلفوا في جنسيته وزمنه . فظَلَمَ الفرسَ ظلماً عظيماً حتى اشتهر بلقب الظالم وكان في كتفيه صِلعتان تشبهان الحيّتين ولذا لُقب بذي الحيتين . وكان هو يقول انهما حيتان حقيقيتان تهويلاً على الناس . فكانتا تؤلمانه ولا تسكنان حتى يطليهما كلّ يوم بدماغي إنسانين فكان يذبحهما ويطلي حيّتيه . وبهذه الصورة اشتدّ الأمر على الفرس . ثم اتفق أن الضحّاك قتَلَ ابن رجل حَدّادٍ اسمه (كابي) أو (كاو) فعظُم على أبيه الحداد الأمر ونهض للثورة واتخذ من الجلد الذي يضعه الحدادون عادةً في أوساطهم عند الشغل علماً للحرب . والتفّ الشعب حوله . وزحفوا على الضحاك متفائلين بدرفشه أي بعَلَمه الذي اتخذه من جلد مهنته . ثم ان (كابي) والفارسيين بطشوا بالضحاك وقهروه وأرادوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أن يملكوا (كابي) فأبى لأنه ليس من سلالة الملوك . وأمرهم أن يولوا أفريدون وكان من سلالتهم فولّوه ، واحتفظ الفرس من يومئذ بذلك الدرفش في خزانتهم . وعظّموه وتبرّكوا به . وصار العلم الأكبر لملوكهم . وسموه (درفش كابيان أو كاويان) وكانوا لا يخرجونه إلا في أحرج الخطوب ، وأكبر الحروب . فكانوا ينتصرون . وكانوا يرصّعونه بالجواهر واليواقيت حتى أصبح بدعةً من البدع وبقي لديهم الى أن تغلب الإسكندر على ملكهم دارا (داريوس) فأخذه أي أخذ الدرفش . وقيل بقي الى زمن (يزدجرد) فأخذه المسلمون في وقعة القادسية وحمل الى عمر فقسّم جواهره في الناس .

يقول البحتري إن صورة أنطاكية تمثل للناظر اليها اشتداد هول المعركة حتى ان المحاربين كان يرون شبَح الموت ماثلاً منتصباً أمام أعينهم . ومُثول الموت بصورة شبَح مرئي كثير الوقوع في كلام الشعراء ، وأبلغه ما قاله بعضهم في وصف بَطَل أبلى حتى قتِل :

مَثَلَ الموتُ بين عينيه والذلُّ وكُلاًّ رآه خطباً جسيما
ثم سارت به الحميَّة قُدْماً فأماتَ العِدَى ومات كريما

* * *

(في أخضرارٍ من اللباس على أصـــفَر يختالُ في صبيغة وَرْسِ)

الظاهر من هذا الوصف أنه يرجع الى (أنوشروان) لأنه نسب اليه لباساً أخضر مسدولاً عليه . واعتلاؤه على الأصفر يُعيّن أن يكون المراد بالأصفر جواداً ملوّناً بصفرة . وهذا الجواد يختال ويتبختر في غِشاءٍ من جلدٍ أو خِرَق (صَبيغة ورس) أي مصبوغة بورس . والورس نبت كالسمسم أصفر اللون يزرع باليمن ويُصبغ به وتتّخذ منه الغُدرة وهي طلاء تَطلي به المرأةُ وجهها ليصفو لونُها . وصبيغة الورس هذه إما أن يكون المراد بها (التجفاف) وهو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

جُلٌّ يُلْبَسُهُ الفَرَسُ في الحرب ليقيه الجراحات فيكون تجفاف فرس كسرى ملوناً في هذه الصورة باللون الأصفر الورسي . ويحتمل أن يكون المراد بصبيغة الورس الميثرة . وفي الحديث الشريف (نهى رسول الله عن ميثرة الأرجوان) قال في النهاية : هي مراكب العجم تعمل من حرير أو ديباج وتحشى بقطن أو صوف . وتكون كالفراش الصغير يجعلها الراكب تحته فوق سَرْج الفرس أو فوق رَحْل البعير نهى عنها النبي لأنها من مراكب الأعاجم . ولأن لونها الأحمر فيه شهرة تبعثُ على العُجب والخيلاء . وانما رجحتُ أن يكون المراد بصبيغة الورس هنا التجفاف لا الميثرة لأن فرس كسرى في معركة ضرب وطعان لا في موكب عرس أو حفلة مهرجان .

(وعراك الرجال بين يديه في خفوت منهم وإغماض جَرْس)

ومما تمثّله الصورة لعين الرائي خفوت المتحاربين أي انخفاض أصواتهم . وهذا معنى (إغماض جَرْس) أيضاً فان الجرس الصوت الخفي يقال (ما سمعت له حِسًّا ولا جَرْساً) والإغماض من غَمْض الكلام خفي مأخذُه . فهؤلاء الرجال كان لهم في الحرب بين يدي كسرى أصوات خفيّة غَمَضَتْ على سامعها وخَفِي مأخذها بحيث لا يُفهم لها معنى . إذَنْ كان (الفنّان) الذي رسم الصورة حاذقٌ في صنعته حتى إنه ليخيَّل إليك أن رجال المعركة لهم جَلَبَة وضوضاء . وكَشْعَرُ مع هذا أن أصواتهم خافتةٌ منخفضة .

(من مشيحٍ يَهوي بعامل رمحٍ وُمليح من السِنان بتُرس)

(من مشيحٍ) بيان للرجال المتحاربين أي أنهم كانوا على أوضاع في القتال مختلفة : كانوا ما بين مُشيح وما بين مُليح . فالإشاحة أن تحذر من الهلاك فتجدّ وتجتهد في دفعه عنك . قال عمرو بنُ الإطنابة :

وإقدامي على المكروه نفسي وضربي هامةَ البطَل المُشيح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والمليح من ألاح - بمعنى أشاح أيضاً فيكون المعنى أن المتحاربين كانوا ما بين بَطل أمامه قِرنه فهو يخافه ويحذره فيجدُّ في مقارمته ودفعه عنه فيهوي بصدر رمحه اليه ، وما بين بَطَل آخر أمامه قِرْنُه قد سَدَّد سنانَ رمحه اليه وقد خافه وحذر منه فَجَدَّ دارئاً بترسه عن نفسه وواقياً لها من سنان عدوّه المُشرّع عليه . وللمُليح معنى آخر غير معنى (المُشيح) أستحسن أن يكون هو المراد هنا يقال ألاح بسيفه إذا ألمعَ به وحرّكه كلوّح بسيفه . فالمعنى على هذا أن بعضهم يُشيح ويجدّ في دفع عدوّه فيهوي بالرمح اليه . وبعضهم يحرك ويلمع بترسه الذي بيده ليقيَ نفسه من السِنان الذي يسدّده اليه عدوّه . وعلى كلا التقديرين فإن في قوله (ومليح من السنان بترس) شيئاً من إدماج وإيجاز تفصيله وبسطه ما ذكرناه .

(تَصِفُ العينُ إنهم جدُّ أحيا ٍ لهم بينهم إشارة خُرْس)

قوله (إنهم) يحتمل فتح الهمزة على كونه واقعاً موقع المفرد مفعول لتصف ويحتمل الكسر على تضمين (تصف) معنى القول فيكون واقعاً موقع الجملة وتكون جملته مفعولاً لفعل (تصف العين) أي ان عين المشاهد لهذه المعركة لا يمكنها إلا أن تصفَ لغيرها ما رأته : فما تصف العين لنا من حالات المتحاربين أن الناظر اليهم يظنهم جِدَّ أحياء : أي تناهى اليهم تمامُ الحياة ، يقال فلان عالم جدٌّ عالم أي متناهٍ في العلم ونقول اليوم فلان عالمٌ جدًّا وبارعٌ جدًّا وقولنا هذا حَسَن . لكن البلغاء أكثر ما يقولون جِدُّ عالم وجِدُّ بارع . والمعنى أن المصوِّر أبدع في تصوير هؤلاء الأبطال حتى إنك لتظنهم أحياءً مما تتخيله من الحقيقة في حَرَكاتهم وسَكَناتهم وأصواتهم الخافتة التي يُحاكون بها أناساً خُرْساً يُديرون فيما بينهم إشاراتٍ يتفاهمون بها بدل الكلام .

(يغتلي فيهم ارتيابيَ حتى تتقرّاهم يَدايَ بلمس)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الارتياب الشك والتردد في صحة أمرٍ ما . وتستقرّاهم تتتبعهم يقال قروت البلادَ واستقربتها وتقرّيتها بمعنى تتبعتها أرضاً أرضاً ، وسرت فيها بقعة بقعة . ونحن نستعمل من هذه المادة فعل استقرأ . ومنه (دليل الاستقراء) في علم المنطق فهو من القرو لا من القراءة . و (يغتلي) بالغين المعجمة إما من غلا في الأمر جاوز فيه الحد ، أو من غلا بالسهم إذا رمى به أبعدَ ما يقدر عليه . واغتلى البعير أسرع إسراعاً جاوز به حسن السير . فالبحتري يقول : ان ارتيابه في كون هؤلاء الرجال أمواتاً لا أحياء تعاظَم في نفسه وبلغ به أقصى الغاية حتى جعله يعتقد أنهم أحياء لا أموات وحتى كاد يمدّ يديه اليهم ويتقرّاهم أي يتتبع أعضاءهم عضواً عضواً وجارحة جارحة ليتبيّن إن كانوا أحياء أو لا . وهذا غاية في وصف الحذق الذي أبداه المصوّر في تصوير هؤلاء الرجال .

* * *

(قد سقاني ولم يُصَرِّد أبو الغو ث على العسكرين شُرْبةَ خَلْسِ)

أبو الغوث ابن البحتري وكأنّ البحتري لما شاهد هذه الصور والتماثيل البديعة في شكلها ، ومختلف أوضاعها ، هاج هذا المشهدُ شهوةَ الشرب والتعاطي في نفسه . ولذلك التفت الى ابنه (أبي الغوث) وقال هاتها فسقاه منها ولم يصرّد ، أي لم يقلّل . و (التصريد) أن تسقي آخر ثم تمنع الشرابَ أو الماءَ عنه قبل أن يروَى منه . وقريب منه (التغمير) وهو أن تسقيه بالغُمَر : وهو قدح صغير تسقيه به لقلة الماء فلا يُرَوّي . فأبو الغوث على العكس كان يروّي أباه أي يسقيه بالصغير وبالكبير . والشربُ كان نخباً على صحة أو سلامة أو شرف العسكرَيْن : عسكر الفرس وعسكر الروم . لكن تلك الشُّربة لم تكن شربة قومٍ متمكّنين متمكّنين فى مجلس الشرب وإنما كانا في غالب الظن على ظهر جوادِيهما ، فكان ابنه يعاطيه الشربة (خَلْساً) أي في اختلاسٍ وخفّة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وعجلة . و (الشُربة) بضم الشين بمعنى المقدار المشروب من الماء أو غيره وهو مفعول به لسقاني في أول البيت و (أبو الفوث) مرفوع على التنازع ، تنازعه كل من الفعلين قبله فيرفعه أحدهما ويقدر للآخر فاعل .

(من مدامٍ تقولها هي نجمٌ ضوءَ الليل أو مُجاجة شمس)

(تقول) هنا بمعنى الظن ومثله قوله :

متى تقول القلّص الرواسما يحملن أم قاسمٍ وقاسما

و (ضوءَ) بمعنى نوّر وأضاء . والمُجاج والمُجاجة الريق تمُجّه من فمك . ويستعمل مجازاً في مثل قولنا (أرض خصبة يمجّ ثراها الندى مجّا) . وفي مثل (مُجاج المزن) وهو المطر ؛ فان المزن أي السحاب كأنه يمجّ المطرَ كما يمجّ الإنسان الريقَ من فمه . ومثل هذا ما قاله البحتري هنا : فانه سمّى السائلَ الذهبي الذي ينتشرُ عن الشمس مُجاجةً كأن الشمس تمجه من فمها مجّا . والتجوز عن ذلك بالمجاجة يشبه تجوزهم بالُّعاب (وهو الريق الذي يسيل من الفم) عن السَّراب الذي يترقرق في الصحارى وقت الظهيرة فانهم يسمونه لعاب الشمس .

ومعنى البيت أن أبا الفوث سقى أباه مداماً فظنها لفرط لألائها نجماً ينير الظلام أو شُعاعةَ شمسٍ تنتشر حرارتها في الفضاء فتحيي الأنام .

(وتراها ـ إذا أجدّت مروراً وارتياحاً للشارب المُتحسّي)

(أفرغت في الزُّجاج من كلّ قلبٍ فهي محبوبةٌ الى كلّ نفس)

ضمير (تراها) يرجع للمدام و (أجدّت) بمعنى جدّت وأحدثت و (الارتياح) النشاط و (المتحسّي) اسم فاعل من تحسّى الشراب واحتساه وحَساه : شربه في مُهلة وتأنٍ . وهذا كما يُشرب الشاي والقهوة والمارق ونحوها . فالحسوُ خاص بالمائعات أو الأطعمة المرقّقة كالحساء فانه عند العرب طعام مرقّق يُتخذ من دقيق ودهن وماء ونحن اليوم وضعنا أرزاً مكان الدقيق وسميناه (شوربا) ثم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عدلنا أخيراً عن كلمة (شوربا) التركية الى كلمة حساء العربية ، وكلمة (شوربا) محرفة عن كلمة (شُرْبة) العربية . كما أن كلمة (Sirop) الفرنسية محرفة عن كلمة (شراب) العربية وان كان لاروس يقول إن (Sirop) مأخوذة من اللاتينية . ومما يحسن إيراده هنا أن الفرنسيين اشتقوا من (Sirop) فعل (Siroter) أي شرب لكن لا بمعنى مطلق شرب بل هو شرب في مهلةٍ وتأن كما يشرب الشاي مثلاً وهذا المعنى لفعل (Siroter) هو نفس معنى حسا وتحسّى في العربية كما مر بيانه .

وقوله في البيت الثاني (أفرغت في الزجاج من كل قلب) جملة حالية من مفعول (تراها) في البيت الأول ، لأن الرؤية فيه بصرية أي ترى المدام ـ حينما تُحدث في نفس شاربها السرور والنشاط ـ مُفرَغَةً في زجاج الكؤوس (من كل قلب) ، أي كأنها تسيل وتعصر من القلوب لا من عناقيد العنب . والدليل على أنها معتصرة من القلوب هو أنك تراها محبَّبة الى القلوب . فلو لم تكن معتصرة من القلوب لما كانت محبَّبة اليها لأنها جزء منها . كما أن الولد جزء من أبيه ولذا يحبه . وهذا على حدّ قول الآخر :

اذا كنتَ من كل القلوب مركباً فأنتَ الى كل الأنام حبيب

وما قاله البحتري في وصف الخمرة على بلاغته من جهة الصنعة الشعرية والجمال الفنيّ فإن الأبلغ منه من جهة الصنعة الطبية والأخلاقية والاجتماعية قول بعض الحكماء (ليست الخمور سوى مصائب مجمَّعة في الكؤوس) وجاء في بعض الأسفار القديمة : (إذا أراد الشيطان أن يدخل مكاناً عسُر عليه الوصولُ اليه أرسل أمامه الخمرة) .

(وتوهمتُ أن كسرى أَبَرويـــــز مُعاطِيَّ والبلَهْبُذَ إنسي)

كلمة (كسرى) يطلقها العرب على كل ملكٍ للفرس كما أطلقوا (النجاشي)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

على كل ملك للحبش . و (كسرى) محرفة عن اسم علم لأحد ملوكهم الأقدمين وهو (كيخسرو) . ويُفهم من كسرى عند الإطلاق كسرى أنوشروان المشهور بالعادل . وقد وُلد في زمنه النبيُّ (ﷺ) ، أما كسرى أبرويز المذكور في البيت فهو من متأخري ملوكهم الذين أدركهم الإسلام . والمعاطاة في اللغة المناولة ثم غلبت في مناولة كؤوس الخمر و (البَلَهْبُذ) اشتبه عليَّ تفسيرها وضبطها ولا سيما انها في معجم البلدان (البلهبدى) بالدال المهملة وألف مقصورة في آخرها . ولم أجدها في المعاجم العربية . وليس لدينا معاجم فارسية يعتمد عليها . ثم هُديت الى تفسيرها بطريق ينبغي ذكره للطف اتفاقه وحسن مساقه : ذلك أنه زار مجمعنا العلمي الدمشقي (سنة ١٩٢٩ م) لمشاهدة الآثار نفر من حجاج الإيرانيين . وفيهم رجل يتزيَّا بزيّ علمائهم ومجتهديهم فاستأنستُ به وطفت معه على الآثار . وسألته عن اسمه فقال : إنه من علماء رشت في خراسان العجم واسمه (ميرزا أبو الفضل) وانه مدرس في احدى مدارس رشت يعلّم طلابها الفقه . فذاكرته في معنى كلمة (البلهبذ) وأنشدته بيت البحتري المذكور ، فقال : البلهبذ بضم الباء الثانية لا بفتحها وآخرها ذال معجمة ومعناها النديم [1] ويراد منها نديم كسرى المشهور ، فقلت له : هل تأذن لي

---

(١) ثم ظفرنا بفوائد تتعلق بالبلهبذ في شهنامة الفردوسي المترجمة للعربية جزء (٢ ص ٢٥٤) وخلاصة ما قرأته فيها ان البلهبذ هو أكبر المغنّين في بلاط كسرى (أبرويز) وأصل اسمه بالفاهوية (بَلَهْبَتْ) وقد تحرف في العربية الى نحو عشرة تحاريف منها : (بربد) و (برباد) وبهلبد وبهلبذ وباهبدى الخ . وهو الذي غنّى لكسرى فأعلمه بموت حصانه (شبديز) بعد ان أخجم وزراؤه عن نعيه اليه . وقد رأيت الأستاذ عبد الوهاب عزام في مجلة الرسالة في كلامه على رحلته الى ايران يضبط (البَلَهْبَذ) بفتح ثم فتح ثم سكون ثم فتح ثم ذال مرة معجمة ومرة مهملة وقال : رووا ان لكسرى أبرويز ثلاث خصائص : حصانه شبديز وجاريته شيرين ومغنّيه بِلَهْبَذ ولم يقم في العالم أحذق من بلهبذ بالعود .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أن أروي شرح هذه الكلمة عنك ؟ قال : قد أذنت لك . فشكرت له تلطُّفه وودعته بحفاوةٍ وإكرام .

وكلمة (أنسي) بضم الهمزة وهو ضد الوحشة أي ذو أنس ، وأستحسن أن تكون بكسر الهمزة صفة بمعنى الأنيس الذي يؤانسك ، يقال فلان (إنسُك وابنُ إنسِك) بكسر الهمزتين أي صفيُّك وأليفك ، وقال أبو زيد (تقول العرب للرجل : كيف ترى ابنَ إنسِك ؟ إذا خاطبت رجلاً تسأله عن نفسك) .

ومعنى البيت أن البحتري لما سقاه (أبو الغوث) نخب السكرَيْن وهو ينظر اليهم والى ملوكهم خُيِّل اليه أنه في مجلس شراب وأن كسرى ابرويز نفسَه يُعاطيه ، والبلهبذَ نديمَه يؤانسُه ويناجيه .

(حُلُمٌ مُطبِقٌ على الشك عيني أم أمانٍ غيَّرنَ ظنّي وحَدْسي)

(الحُلُم) رؤيا المنام و (أمان) جمع أمنيّة والحدس الظن والتخمين ، يقول البحتري : إن ما توهمه من معاطاة كسرى ومنادمة البلهبذ هو يا ترى أضغاث أحلام انطبقت أجفانه على الشكّ والتردد في صحتها أو هو من قبيل الأماني التي تشتدّ أحياناً في النفس فيتبدّل معها الظن والتخمين إلى القطع واليقين ؟؟

(وكأنّ الإيوان من عَجَب الصنـــــعة جَوْبٌ في جَنْب أرعن جِلْسِ)

بعد أن وصف الشاعر صورة معركة انطاكية التي شاهدها في (الجرماز) ، وشرب عليها المدام اختلاساً من دون نقل ولا ماز ، عاد في الوصف الى مشهد آخر من مشاهد إيوان كسرى وطاقه المشهور . والطاق كما مر القوس الأعظم المبني بالآجر وكل آجرةٍ طولها ذراع وعرضها نحو شبر . عُرِّيَتْ تلك القنطرة من جصِّها وزينتها . ولم يبق منها إلا تلك الآجرات المقوّسة كأضلاع الهيكل العظمي بحيث يظنّها من يراها عالقةً في الفضاء وقد انطادَتْ صُعُداً حتى كأن لها حاجةً في السماء . هذا الطاق اذا استقبله الزائر رأى فضاءً مطوقاً بقوسٍ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من آجر على ارتفاع ثمانين ذراعاً وقد أحاطت به من ورائه بعيدةً عنه بقايا القصور والأبنية الشاهقة ـ اذا رأى هذا المشهدَ مشاهدُه لم يحسبه إلا جَوْباً في جنب أَرْعَن جَلْس . والجوبُ الخرْق والنَقْب الواسع . وكل فجوة تُحيط بها البيوت من جوانبها فهي جَوْب . وأصل معنى الجوب القطع وجابوا الصخر بالواد (وهم ثمود) : قطعوه وفتحوا فيه فَجَوات ومغاور يسكنون فيها . والأرعن الجبل ذو الرَعْن . والرعن أنف عظيم يتقدّم الجبل أي نتوءٌ وبروزٌ في الجبل . و (الجَلْس) بفتح الجيم الجبل العالي الطويل .

يقول البحتري في صفة الإيوان وطاقه : إن صانعه أتى في صنعه بالعَجَب العجاب : إذ هو يشبه فجوةً واسعة في جنب جَبَل شامخ عظيم .

هذه الفجوة أو الجَوْب الواسع في الجبل الذي رآه شاعرنا يذكّر بفجوةٍ أخرى أو جَوْبٍ آخر يراهُ الناظر تحت قدمه إذا أشرف من أرز لبنان على وادي نهر قاديشا المشهور بالجُبَّة . تلك الفجوة أو الهوّة الواسعة العميقة جدّ العمق والتي تحيط بها الجبال الشامخة جدّ الشُموخ وكلها من صنع الطبيعة تُذَكِّر بفجوة الطاق الهائلة وحولها الأبنية ، وكلها من صنع البشر .

(يُتَظَنّى من الكآبة إنْ يَبِـــدْ لِعَيْنَيْ مُصَبِّح أو مُمَسِّي)
(مزعَجاً بالفراق عن أُنس إلف عزّ أو مُرهقاً بتطليق عِرس)

يصف الكآبة الحزينة التي تغشى الإيوان عندما يراه الناظر وقتَ الصباح أو وقتَ المساء . و (يُتَظَنّى) بمعنى الظن أصله يتظنّن بثلاث نونات أُبدلت الأخيرة ألفاً ومنه قول الحريري في مقاماته :

يا من تَظَنّى السَراب ماءً لما روبتُ الذي روبتُ

(مُصَبِّح ومُمَسِّي) اسما فاعل من صبّحه ومسّاه جاءه صباحاً ومساءً . و (مُزعَجاً) بفتح العين اسم مفعول من أزعجه عن وطنه ثم اضطرّه الى مغادرته وهو كاره ومنه قول ابن دريد :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وسائلي بمزعجي عن وطني ما ضاق بي جنابه ولا نبا

و (إلف عزّ) أي أليف وأنيس عزّ عليه و (المُرهَق) اسم مفعول أيضاً من أرهقه إذا أعنته وكلّفه ما لا طاقة له بحمله . والعِرس بكسر العين : الزوجة .

والمعنى أن من زار الإيوان صباحاً أو مساءً ظنه مما عليه من الكآبة والعُبوس وسوء الحال رجلاً طرده ظالم من وطنه وفرّق بينه وبين أليفه المؤانس له العزيز عليه . أو يظنه زوجاً مُحباً لزوجه في رَغَد من الحياة معها أرهقه ظالم غاشم وأكرهه على تطليقها ، فإيوان كسرى يشبه أحد هذين الرجلين الحزينين المهاجر من وطنه أو المطلق لسكنته .

(عكست حظّه الليالي وبات المشتري فيه وهو كوكب نحس)

هذا البيت وارد على رأي الأقدمين في الطالع وأن للنجوم تأثيراً في أحوال البشر ، وشؤون حياتهم . وهو العلم الذي أبطله الإسلام . ولكن مع الأسف بقي جماعة من المسلمين يؤمنون به الى هذه الساعة .

وكوكب (المشتري) هو الذي ينجلي على الناس بحسن الطالع في زعم المنجمين . وعلى العكس كوكب (زُحَل) فإن طالعه شؤم وشقاء عليهم . فإيوان كسرى بعد أن كان كوكب سعده كوكب المشتري عكست الليالي هذا الحظ وحوّلت المشتري الى كوكب نحس وشؤم على الإيوان .

(يتبع) المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net